والمطامع والفوائد التي نحصرها في أضيق الحدود وأقرب الحاجات

لأحرى بنا أن نسأل : لماذا يحجم العقل عن المعرفة ، وأن نسأل لماذا تحجم العين عن النظرة ، وأن نسأل لماذا تعجز الحواس عن الادراك

عندئذ نفهم الجواب ولا يطول بنا العناء في فهمه ، فذاك أن الحواس عاجزة مكفوفة ، وأن العين عمياء ، وأن العقل معدوم أو ضعيف

أما أن نسأل لماذا يعنى العقل بالمعرفة فذاك هو اللغو والفضول ، وذاك هو السؤال الذي يشبه سؤالنا : ما بال العين تقع على ما تراه ولا تنحرف عنه ولا تأبى النظر إليه

حسب الشيء أنه يُرى ليكون ذلك حقاً له في رؤية العيون

وحسب الشيء أنه يُعرف ليكون ذلك حقاً له في معرفة البصائر والعقول

فان جعلنا للمعرفة ثمناً من الحطام أو ثمناً مما يشبه الحطام فهي إذن معرفة اضطرار أو معرفة عبيد وأتباع ؛ وهي إذن شيء وطبيعة السيادة شيء ، ولو نجح صاحبها في السيطرة على الآخرين كما ينجح الجبان في يده المدفع وخصمه أعزل من السلاح

قال الأستاذ طمسون عن آراء أرسطو في علم الأحياء ما معناه : إن الفضل كل الفضل للفيلسوف الاغريقي العظيم أنه شعر بالحاجة إلى مراقبة الحشرات والأسماك في الخلجات ، وفهم أن تقييد حركاتها وتسجيل ولاداتها ونموها معرفة تحسن بالحكيم ؛ وليس الفضل أنه أتى بآراء في علم الأحياء يعول عليها الناس في العصر الحديث

ولو أن الفيلسوف الاغريقي لم يشغل عقله في زمانه إلا بما يفيد لتوه وساعته لما وصلنا إلى علم أحياء يفيدنا اليوم ، أو لا يفيد

ليست الآفة عندنا أننا مشغولون بالتجارة عن القراءة ، فالأوربيون أعظم منا اشتغالا بالتجارة واجتناء لخيراتها

وليست الآفة أن الصحف اللاهية تصرفنا عن كتب العلم والأدب والدراسة ، فان الصحف اللاهية سبقتنا في أوربا ويسبقنا بها الأجانب في بلادنا المصرية

ولكنما الآفة أن التجارة تجارتان : تجارة أحرار فهم مسيطرون عليها ، وتجارة اتباع فهي مسيطرة عليهم ، وأننا إذا طلبنا المال أو المعرفة طلبناها مسوقين ولم نطلبهما طلب السادة الذين يملكون من أنفسهم بقية يشغلونها بما يحبون

عباس محمود العقاد

تأملات في الأدب والحياة

للأستاذ إسماعيل مظهر

أدب طبعة ثانية

عرضت في كلمة سابقة إلى تلك المعركة الفائمة على صفحات الرسالة بين الأدباء حول أدب الأستاذ العقاد وأدب الأستاذ الرافعي رحمه الله ؛ وسقت نقدي مساق من لا يبرئ نفسه مما تناول ذلك النقد من رأي واتجاه . فلم أخرج ذاتي من مجال النقد الذي سقت ، معترفاً بأن ذلك رجوع إلى الحق ، واطمئنان إلى اتجاه جديد . ولكن هذا كله لم يرض الأديب سيد قطب فراح يتهكم ويسخر لا ليقول شيئاً جديداً ولا ليحاسب نفسه حساب الرجل القادر على كبح عواطفه ليجعل لعقله بعض القدرة على وزن الموقف بميزان لا يميل مع الهوى ولا ينساق مع الانفعال

غير أن انفعال الأديب سيد قطب فيما كتب لم يكن ليجعل لعقله محلاً من الأثر في صوغ المعاني التي أرادها ، فأخذ يرمي الجمل والكلم ذات اليمين وذات الشمال وعن أمام وعن خلف ، شأن الثائر لا شأن الناقد ؛ ثم خانته ثورته وخذله انفعاله ، فاستيقظ عقله الباطن استيقاظة طفيفة ، فرجع إلى قوله : « أنا » ، كأنما طبيعته لم تقو على احتمال تلك الثورة ولم تستطع مقاومة ذلك الانفعال ، فتبدت في ثوب ذي ألوان — ألقى إليه به قزح وأدبر وانصرف » — كان أبين لون فيه ذلك اللون الذي تتخيله من قوله :

« وإننا من أخلص تلاميذ مدرسة هذا الكاتب (أي الأستاذ العقاد) لطريقته ، وأشد الناس فهماً لها ، واقتناعاً بها ، ونسجاً على منوالها »

إذن فالأديب سيد قطب أشد الناس فهماً لأدب الأستاذ العقاد ، وليس ذلك فقط فهو أيضاً أشد الناس إقتناعاً بطريقته ؛ وليس هذا ولا ذاك فقط ، بل هو فوق هذا وفوق ذاك أقدر الناس على النسج على منوال الأستاذ العقاد . وإذن يكون الأديب سيد قطب ، أديب طبعة ثانية ؛ فهو باعترافه أديب ، غير أنه عبارة عن نسخة من أديب آخر ؛ أديب شخصية صورة من شخصية

أديب آخر ، وأدبه لوحة من أدب شخص آخر ؛ أديب أسلوبه كالطبعة التي يتركها في الرمل قدم أديب آخر ؛ أديب نفسيته وطبعه وذاتيته كالصورة الوهومة التي تلتقطها المصورة الضوئية وتطبعها على الزلق المعروف ، ولكنها صورة وهمية

هذه الصورة الوهمية ، قد أفرغ عليها الأديب سيد قطب صفات وحلاها بفضائل ، لا أنكر أنه نسبها إلى الأستاذ العقاد ، كما لا أنكر أنه إنما نسبها إلى الأستاذ العقاد ، لتكون نسبتها إليه منصرفة بالتبعية إلى « الطبعة الثانية » من الأستاذ العقاد ؛ وتلك الطبعة هي الأديب سيد قطب

أما هذه الصفات وتلك الفضائل ، فلا أنكر أنها قد تخمت وحليت ، حتى إذا لابست أدب الأستاذ العقاد ، لابست بالتبعية « طبعته الثانية » سيد قطب . يقول الأديب سيد قطب في مقاله الأخير :

« يُعنى العقاد (والأديب سيد قطب باعتباره طبعة ثانية) إمام المدرسة الحديثة (والأديب سيد قطب باعتباره إمام المدرسة الحديثة طبعة ثانية) بالحياة النابضة في ضمائر الأشياء قبل الحياة الظاهرة على سطوحها ، ويعني بالحياتين معاً قبل العناية بأشكالها وصورها ، ويلتفت للخوالج النفسية قبل أن يلتفت إلى الصور الذهنية ، ويعنى بهاتين قبل العناية ببهارج الأسلوب وزخارف الطلاوة »

ثم يقول :

« وللعقاد (والأديب سيد قطب باعتباره طبعة ثانية) عناية بتصحيح مقاييس الأحكام على الطبائع والنفوس[1] ، منشؤه أنه صاحب « نفس » خاصة ، وطبع « أصيل »[2] ، فهو لا يتلقى المبادئ والأحكام من الخارج ، ولكن يفيض بها من الداخل ، ويسمع فيها منطق الحياة الخالدة ، ووحي الانسانية الدائمة ، لا منطق الفرد العابر ، ولا الجيل القاصر » — ومن عندنا — تعبيرات الاختلاجات المستقوية على الذاتيات في كمن سعفص قرشت

هذا الكلام المغلق بسبعة أبواب كما يقولون ، وأشباهه في كلام الأديب سيد قطب كثير وكثير جداً وجداً كثير ، هو الذي يحاول أن يجلو به أستاذاً كالعقاد في مجال الكلام عن مذهبه ، فإذا به يطمس المعاني ويرسل التعميمات التي لا حدود لها لتكون حدوداً لمذهب أدبي . غير أن لهذا الأمر حقيقة خفية ؛ حقيقة تختفي وراء هذه الضربات القاسية المصمّة التي يخرج من هذه الطبلة التي يضرب عليها الأديب سيد قطب . أما هذه الحقيقة فهي أن الأديب قطب لا يتكلم عن الأستاذ العقاد ، وإنما يحاول أن يتكلم عن نفسه متخذاً من الأستاذ العقاد ذريعة يحتمي بها . كيف لا والأديب سيد قطب « من أخلص تلاميذ هذا الكاتب لطريقته ، وأشد الناس فهماً لها ، واقتناعاً بها ، ونسجاً على منوالها » ؟ أما أن الأديب سيد قطب « أشد الناس فهماً لطريقة الأستاذ العقاد واقتناعاً بها ونسجاً على منوالها » فأمر جدلي ، ودعوى من السهل أن يدعيها أي إنسان ؛ والدعوى شيء وإثباتها شيء آخر . وأما أنه يتكلم عن الأستاذ العقاد ليتكلم عن نفسه ؛ وأما أنه لم يمدح الأستاذ العقاد إلا ليمدح نفسه ، وليقول صراحة إنه خليفة العقاد في طريقته ، وإنه أشد الناس فهماً لها واقتناعاً بها ونسجاً على منوالها ، فدعوى نقولها ونثبتها بكلام ذلك الأديب نفسه .

وحيث أن الأديب سيد قطب أثار النقع متخذاً من خصومة أدبية قديمة بين أديبين ذريعة للكلام في أشياء بعيدة عن مذهبيهما

وحيث أنه نصر الأستاذ العقاد على الأستاذ الرافعي رحمه الله في حماسة متقدة دلت على أنه يحاول من ورائها كسباً أدبياً

وحيث أنه قضى بأن الأستاذ العقاد صاحب مذهب ، وأن مناظره لا مذهب له من غير أن يقيم الحجة على ذلك

وحيث أنه اتضح أن السبب في ذلك إنما يرجع إلى غرض خفي هو أن يدعي لنفسه أنه أشد الناس فهماً لطريقة الأستاذ العقاد واقتناعاً بها ونسجاً على منوالها

وحيث أن المنطق يسلم بأنه لم يتهد من وراء ما كتب كله إلا بلوغ هذه الغاية الشخصية ، وهو أن يكون خليفة الأستاذ العقاد ، محاولاً أن يستل مجد أديب خدم الأدب ربع قرن ليدعيه لنفسه بضع مقالات

---

(١) أليس هذا الكلام كقولك « أشكوك كوك لكي تنفك عن كلكي » ، وكقول البرابرة « أره بره كنكره ؟ كرا كرى مندره

(٢) سبحان الله من طبعك ؟ وهل يكون الطبع إلا أصيلا ؟

لهذا كله يكون الأديب سيد قطب « طبعة ثانية » ولكنها طبعة منزورة من الأستاذ العقاد

هذا الاستقراء صحيح تحت مسؤوليتي ، ولا أتكلم في هذا الموضوع مرة ثانية . فإن الحقائق التي تمت عنها كلمات الأديب تجعل كل نقاش في الموضوع فاقد القيمة ، ما دام أن « أنا » هي المحور الذي تدور من حوله تلك البحوث

عن فولتير

(١) من أنت ؟ ومن أين أتيت ؟ وما هو عملك ؟ وما الذي سوف يحل بك ؟ عامة ذي أسئلة ينبغي أن يفكر فيها كل مخلوق في هذا الوجود ؛ ولكن لم يجب عنها كائن ما . أتساءل عن النباتات بأي سر تنمو ، وكيف أن الأرض الواحدة تؤتي بالثمر المتباين المختلف ؟ إن هذه الكائنات غير الحساسة — مع إيماني بأنها قد زودت بسر إلهي — تتركني أمامها شاعراً بالجهل العميق ، سابحاً في فروضي العميقة . إني أقف حائراً أمام هذه القطعان الغفيرة من الحيوانات ، فكلها ذات قدرة على الحركة والانتقال ، وفيها من الاحساسات ما أجد مثله في نفسي ، ولها انفعالات تمتد إلى حيث تكون الأفكار والذكريات . ومع هذا فانهم بأنفسهم أجهل مني بنفسي . فلأي شيء وجدوا ؟ وإلى أي شيء سوف ينقلبون ؟ لقد أظن أن السيارات وتلك الشموس العظيمة التي تملأ رحاب الفضاء ، يأهل بها مخلوقات مفكرة واعية . ولكن دونها حاجز أبدي يفصلني عنها ، فان واحداً من سكان تلك الكرات العظام ، لم يستطع الاتصال بعالمنا

قال رئيس الدير ، متجلياً في الطبيعة ، للفارس: إن النجوم قد صنعت من أجل الأرض ، وإن الأرض والحيوانات صنعت من أجل الإنسان . ولكن هذه الكرة الأرضية الصغيرة إذ تدور مع بقية السيارات من حول الشمس ؛ وإن هذه الحركة المنتظمة المتسقة التي تسيرها الأجرام السماوية إذ ربما تستمر ولو لم يكن ناس ؛ وإذ كان في سيارنا الصغير من الحيوانات عدد أعظم من عدد أبناء آدم ؛ فقد أتصور أن رئيس الدير قد شمله حب الذات وعمه الغرام بالنفس ، تخيل إليه أن كل شيء قد صنع من أجله. وإني لأرى أن الانسان عرضة لأن يلتهمه أي حيوان إذا لم يتقها بالسلاح ، وإن كل الحيوانات تأكله بعد أن يموت . من أجل هذا داخلني الشك في أن رئيس الدير والفارس هما سيدا الطبيعة. وباعتباري كائناً هو يحكم وجوده عبد لكل شيء يحيط به ، لاسيداً آمراً مطاعاً ؛ كائناً مكبلاً حيث ذهب وكان ؛ كائناً تحيط به اللانهايات ، أبدأ بحثي عن طبيعة نفسي

٢ — ضعفنا

إني حيوان ضعيف؛ ولدتُ بلا قوة وبلا معرفة وبلا غريزة. كنت عديم القدرة حتى على الزحف إلى ثدي أمي ، على الضد من كل ذوات الأربع . استوعبت قليلاً من الفكرات ، وحزت قليلاً من القوة عندما أخذت أعضائي تبرز وتتكون . ومضت القوة تزيد فيّ ، حتى إذا بلغت حداً اكتملت فيه ، أخذت من ثم في التناقص . وتلك القوة التي مكنتني من إدراك الفكرات أخذت بدورها تزيد وتستفحل حتى بلغت حدها الأقصى ، ثم أخذت تتخاذل بعد ذلك ، حتى لأشعر بأنها تفنى شيئاً فشيئاً

ما هي تلك القوة الآلية التي تزيد من قدرة أعضائي في حدود هذا الهيكل الجسمي ؟ إني لأجهلها . وأولئك الذين قضوا أعمارهم في الفحص عنها ، ليسوا أكثر مني معرفة بها

وما هي تلك القوة الأخرى التي تحمل الصور إلى ذهني ، ثم تخزنها في ذاكرتي ؟ أما أولئك الذين أُجروا بالمال لكي يعرفوا شيئاً ، فقد ذهبت كدودهم أدراج الرياح . ونحن وهم في الجهل سواء بالمبادئ الأولية التي تقوم عليها طفولتنا

٣ — كيف أفكر

هل علمتني تلك الكتب التي حُبّرت في خلال الألفين الفارطين من السنين شيئاً ؟ قد تشبُّ في نفوسنا بعض الأحيان رغبة في أن نعرف كيف نفكر ، وقلما تقوم في أنفسنا رغبة في أن نعرف كيف نهضم أو كيف نمشي . لقد تساءلت ماهو عقلي ؟ والحق أنه سؤال كثيراً ما أربكني

لقد حاولت أن أكشف بقوة عقلي ما إذا كانت المصادر التي تجعلني أهضم وأمشي ، هي بنفسها المصادر التي تجعلني أتقبل الفكرات . ولم أستطع أن أدرك كيف وإلى أين تذهب تلك الفكرات عندما يمضني الجوع بنابه السام ، وكيف تعود وتتجدد بعد أن أسد نهمة الجوع بالأكل

استبنت فارقاً كبيراً شاسعاً بين الفكر والاغتذاء ، بغيره لا أستطيع التفكير ، حتى لقد اعتقدت أن فى كيانى مادة تفكر وأخرى تهضم . ومع هذا وبالرغم من أنى رضت نفسى دائماً على الاعتقاد بأن فى وجودى شيئين ، فإنى من الوجهة المادية أشعر شعوراً صادقاً بأننى شىء واحد . على أن هـذا التناقض يؤلمنى ويؤذينى .

سألت بعضهم ، وكانوا من أولئك الذين يفلحون الأرض ، أمنا العظمى ، عما إذا كان كل منهم شيئين ، وعما إذا كانوا قد استكشفوا بفلسفتهم الخاصة أن فيهم جوهراً خالداً باقياً ، ومع ذلك فهو مؤلف من لاشىء ولا امتداد له ، وأنه يؤثر فى أعصابهم من غير أن يلمسها ، وإن هـذا الجوهر قد حلّ فيهم بعد أن حملت فيهم أمهاتهم بستة أسابيع ؟ فظنوا أنى أهزل ، ومضوا يفلحون الأرض مبتسمين من غير أن يجيروا جواباً

٤ — أمن الضرورى أن أعرف

لما أن وجدت أن عدداً عظيما من الناس ليس لهم أية فكرة فى تلك المشكلات التى تساورنى ، وهم مع ذلك لا تختلجهم الشكوك فيما يتلق في المدارس أو فى الوجود عامة أو فى المادة أو فى الروح إلى غير ذلك ؛ ورأيت أنهم يهزأون من رغبتى التى تدفعنى إلى معرفة هذه الأشياء واستيعابها ، شرعت الريبة تداخلني فى ضرورة معرفتها ؛ وتخيلت أن الطبيعة قد أعطت لكل مخلوق نصيباً هو حقه الطبيعى غير زائد ولا منقوص ، وإذن تكون تلك الأشياء التى لا نستطيع أن نعرفها ، ليست من نصيبنا ، ولكن بالرغم من هذا اليأس ، فانى لا أقدر على أن أجرد نفسى من الرغبة في أن أتعلم ، فان حب الاستطلاع نزعة سوف تظل غير مكفية فى نفسى

٥ — أرسطو طاليس وديكارت وغسندى

بدأ أرسطوطاليس كلامه بالقول بأن الشك نبع المعرفة ، وتلاه ديكارت فانتقل بهذه النزعة خطوة أخرى حتى لقد عفى كلاهما بألا أعتقد فى شىء يقولانه . وديكارت هذا على الأخص بعد أن ادعى أنه يشك ، مضى يتكلم بأسلوب تقريرى حاسم فى أشياء لا يفهمها . يقول إنه موقن بالحقائق ، بينما نجده على خطأ كبير فى طبعياته . لقد بنى ديكارت عوالم وهمية ، فان حلقاته الزوبعية وعناصره الثلاثة[1] ، أمور تثير الضحك ، حتى لقد أشك فيما قال فى النفس ، إذا قست علمه بها على علمه بالأجسام

هو يعتقد ، أو بالحري يظن أنه يعتقد ، أننا نولد مزودين بفكرات غيبية ، فهل يحق لى أن أقول بناء على هذا أن هوميروس قد ولد مزوداً بالالياذة ، وأنها كانت كامنة فى تضاعيف ذهنه . مما لا شك فيه أن هوميروس قد ولد وذهنه مهيأ لأن يستوعب فيما بعد فكرات شعرية ، بعضها جميل ، وبعضها متضارب ، وفى بعض الأحيان مصبوغة بالمغالاة ، وفى النهاية أستطاع أن يؤلف الالياذة ، إننا إنما نولد فى هذه الدنيا وفينا البذرة التى تتمخض عما سوف نكون ، ولكن الحقيقة أننا نولد وليس فينا من الفكريات الفطرية أكثر مما كان عند روفائيل وميكال انجلو[2] من أقلام وألوان عند مولدهما

يحاول ديكارت أن يوحد بين خيالاته تلك ، بأن يفرض بأن الناس يفكرون دائماً . من هنا أستطيع أن أفرض أيضاً أن الطيور تطير على وجه الدوام ، وأن الكلاب تجرى فلا تقف ، لأن فى الطيور القدرة على الطير ، وفى الكلاب القدرة على الجرى

إننا لا نحتاج ، لكى نقتنع ، بما يتناقض هذه الأقوال ، إلا لفتة إلى تجاربنا ، وأخرى إلى الطبيعة البشرية ، فليس فى الانسانية برمتها واحد بلغ مته الجنون مبلغ أن يعتقد أنه مضى يفكر كل حياته ليلا ونهاراً بغير انقطاع ، من يوم أن كان جنيناً حتى مرضه الأخير ؛ أما الملجأ الذى يلجأ إليه الذين يدافعون عن تلك الأقصوصة ، فقولهم إننا نفكر على الولاء ، وبغير انقطاع ، من غير أن تدرك أننا نفكر ، ومن هنا يمكن أن نقول إننا قد نشرب ونأكل ونركب الخيل من غير أن تدرك أننا فعلنا ذلك ؛ وإذا كنت عاجزاً عن أن تدرك أنك تحوز فكرات ، فكيف تعتقد أو توقن بأن فيك منها شىء ؟ لقد سخر غسندى من هـذا المذهب المتطرف ، جهد ما يستحق أن يسخر منه . ولكن أتعلم ما ذا كانت النتيجة ؟ كانت أن ديكارت وغسندي قد رميا بأنهما من الملاحدة المنكرين لله

اسماعيل مظهر

(١) يقول ديكارت إن المادة حلقات زوبعية وأن العناصر ثلاثة
(٢) رسامان عاليان عاشا فى القرون الوسطى